تمهيد

الأندلس والأندلسيون

obeikandl.com

obeikandl.com

١ – اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التى تشمل حالياً دولتى إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت فى أقدم عصورها باسم إيبريا Iberia نسبة إلى الإيبريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hespania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقى ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذى نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقى i-schephan-im يعنى « شاطئ الأرانب » . ويقال فى تعليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبرى الذى نزلوا به[١].

كذلك كان الجزء الجنوبى من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك فى العهد الرومانى ، ثم سمى باسم « قندليسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون من « وندلس »[٢] Vandalos ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التى أغارت فى أوائل القرن الخامس الميلادى

---

(١) Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(٢) Levi Provençal : Espanâ musulmana, p. 44.

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء الـ « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « ڤندليسيا »[١] نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ما كان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكأنهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذى فعله المسلمون من تغيير فى اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « ڤندلس » كما تدل صورة الكلمة فى حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإسبانى للكلمة Vandalos. والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الفاء » المجهورة التى يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب فى التطور الصوتى ؛ فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور « V » واواً لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذى أحدثه المسلمون حين قالوا : « أندلس » لا « فندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتى أحياناً بدلا من الواو فى العربية ، مثل : وُجُوه وأُجُوه ، جمع وجه .

وقد بقى اسم « الأندلس » الذى أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئاً من التطور فى لفظه ، وشيئاً من التطور كذلك فى معناه. أما اللفظ فقد أصبح فى اللغة الإسبانية « أنْدَلُثيا Andalucia » بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التى يشملها اسم « أندلثيا » الآن فى إسبانيا هى المرِيَّة ، وغَرْنَاطة ،

---

(١) أو « وندليسيا » .

ومالَقَة ، وجَيّان ، وقُرْطبَة ، وإشبِيلِيَة ، وقادس ، وأوْنَبة .[١] .

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليلات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرى عن ابن سعيد من أن تلك البلاد « سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها »[٢].

وليس يخفى ما فى رأى ابن سعيد من تعليل أسطورى أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتدوا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرى قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلش معجمة الشين ، بهم سمى المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »[٣]. فهذا تعليل يطابق أحدث التعليلات العلمية المبينة على أسس تاريخية، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسببه — فى رأيى — أن السين أو الحرف S ينطق كثيراً فى اللسان الإسبانى بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكأن الإسبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها . .

---

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى فى أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً فى اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى فى آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً فى الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين LL فى آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثانى ياء .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٦ .

وشبيه بالتعليل الأسطورى الذى ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى فى سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ؛ فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان « ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية »[١] . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذى لا يعرف االتاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الشاطئ لإيبرى حين نزلوا به .

٢ ــ لمحة جغرافية :

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من أوربا . والمياه تطوف بها من كل جوانبها ، عدا جانباً واحداً هو الشمالى الشرقى ؛ حيث تحدها جبال البرانس[٢] الفاصلة بينها وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التى توشك أن تطوق الأندلس ، فهى مياه البحر الأبيض من الشرق ، ومياه المحيط الأطلسى من الغرب والشمال الغر. ، ثم مزيج من مياه البحر والمحيط فى الجنوب حيث مضيق جبل طارق[٣] ملتقى البحر بالمحيط ، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا ، فهذا المضيق يبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ، ولولاها للاصقت إفريقيا من الشمال أوربا من الجنوب .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) يسميها العرب أيضاً : البرتات . وهو من غير شك جمع عربى للكلمة الإسبانية Puerte بمعنى منفذ أو مدخل ، وذلك لأن تلك الجبال ذات ممرات تصل بين فرنسا وشبه الجزيرة .

(٣) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس ،واسمه العربى قبل ذلك بحر الزقاق وكثيراً ما يستعمل حتى بعد الفتح ، ولكن الأوربيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق ، فيقول الإسبان مثلا Gibraltar .

ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التى تسمى « مسيتا » Meseta وهى تشغل جزءاً هائلا من مساحة شبه الجزيرة . وتأتى بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها ؛ فمن الجنوب تمتد جبال « سيرا مورينا Sierra morena » أى سلسلة الجبال السمراء[١] . وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبى كبير ينسبط حتى أقصى الجنوب[٢] . وفى شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى . وهى الجبال الإيبرية Sistema ibereco ، وهى التى تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقى ، الذى ينسبط حتى ساحل البحر الأبيض . . وفى شمال الهضبة تعلو جبال أخرى ،

---

(١) والعرب يسمونها : الشارات ، وهو جمع عربى محرف لكلمة Sierra الإسبانية بمعنى سلسلة جبال .

(٢) ترتفع من السهل الجنوبى جبال أخرى تسمى Sierra nevada أى سلسلة الجبال الثلجية ويسميها العرب « شلير الثلج » ولعل كلمة « شلير » تحريف عربى للكلمة الإسبانية Salir بمعنى الخروج ، فكأنهم يرون (بشلير الثلج) مخرج الثلج .

الجبال « القنطبرية Cantabrica » ، وهذه الجبال تليها شمالا بعض الأقاليم السهلية الضيقة . وفى الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهى إلى سهل ممرع كبير هو السهل الغربى .

وتجرى فى الأندلس أنهار عديدة ، أهمها نهر الوادى الكبير ، الذى يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذى أطلقه العرب ، ولكن مع تحريف يسير فيقولون : « جواد الكبير Guadalquivir »[١] وهذا النهر يروى أكثر أراضى السهل الجنوبى ، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة وإشبيلية ثم يصب غرباً فى المحيط الأطلسى . ثم يلى الوادى الكبير شمالا نهر وادى يانة ، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربى ، فيقولون « جوادايانا Guadaiana » . ويعد هذا النهر يأتى شمالا نهر التاجه ، ويسميه الإسبان « التاخه El Tajo »[٢] وهو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طُلَيطِلَة العظيمة[٣] .. وبعد كل هذه الأنهار يأتى شمالا نهر دوُيْرُه ، الذى يسمى عند العرب أحياناً بالوادى الجوفى ، والذى يطلق عليه الأسبان اسم « دورُ Duero » وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً فى البحر الأبيض ، وهى تلك الأنهار التى تروى الشرق والشمال الشرقى تقريباً . وأهم تلك الأنهار : نهر إبْرُه Ebro ، الذى يروى إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه ، مدينة سَرَقُسْطَة[٤] .

---

(١) من خصائص النطق الإسبانى صعوبة نطق الواو المحركة فى أول الكلمة ، ومن هنا أضافوا حرف G قبلها لتيسير النطق .

(٢) من التطورات الصوتية فى اللغة الإسبانية اختفاء صوت الجيم المعطشة التى يدل عليها فى كثير من اللغات الأوربية الحرف J ، فهم ينطقون كل ما أصله جيما معطشة أو J أوربية خاء . هذا وبعض المصادر العربية تكتب الاسم بفتح الجيم ولكن صورة الاسم فى اللغة الإسبانية ترجح أن الجيم مضمومة .

(٣) يسميها الإسبان Toledo

(٤) ويقول لها الإسبان Zaragoza . مع ملاحظة أن حرف z ينطق كالثاء العربية لا كالزاى ، وهذا من الظواهر الصوتية التى تختلف فيها الإسبانية عن غيرها من اللغات الأوربية .

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادى الأبيض ، الذى تطور اسمه على ألسنة الإسبان إلى « جوادا لابيار » Guadalaviar . وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس ويمر بشمالى مدينة بلنسية ، المدينة الأندلسية العظيمة(١) .

ومن الأنهار الشرقية التى تلى الوادى الأبيض جنوباً ، نهر شُقُر ، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون : « خوكر » Jucar (٢) . وعلى هذا النهر تقع جزيرة شقر التى تتصل اتصالا كبيراً بالأدب الأندلسى لجمال طبيعتها ، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء .

وهناك بعد ذلك جنوبى هـذه الأنهر يجرى نهر شَقُّورة ، الذى يقال له فى الإسبانية « سجورا » Sigura(٣) . وهو يخترق مدينة مُرْسِيَة(٤) ويروى قسماً كبيراً من إقليم شرقى الأندلس .

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التى ذكرت فى هذا الحديث ، كما أن هناك عيوناً وآباراً كثيرة . وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية فى الأندلس . غير أن الاعتماد أساساً على الأمطار فى منطقة الهضبة الوسطى .

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس ، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها

---

(١) يقال لها بالإسبانية : Valencia مع ملاحظة أن الحرف c ينطق ثاء لأن بعده الحرف i وهذا من خصائص الإسبانية .

(٢) نص ياقوت فى معجم البلدان على أن الاسم بفتح فسكون (ج ٣ ص ٣٠٧) ولكن النطق الإسبانى الذى يضم أول الاسم ربما يرجح أنه كان بالضم فى العربية . ويلاحظ أن الشين العربية قد تطورت أولا إلى جيم معطشة فى النطق الإسبانى القديم ثم صارت خاء مثل كل جيم معطشة أو J فى النطق الإسبانى الحديث .

(٣) إذا لاحظنا أن نطق كثير من الإسبان للسين يأتى مشرباً بالشين ، وأن لا فرق صوتياً بين القاف والجيم غير المعطشة فى اللغة العامية عادة ، كما يقال فى قال : جال — إذا لاحظنا ذلك تبين أن النطق الإسبانى هو النطق العربى لهذه الكلمة تقريباً .

(٤) يسميها الإسبان Murcia . مع ملاحظة نطق الحرف c ثاء .

إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء ؛ فالحق أن هذا تصور شعرى حمل عليه ما جاء فى نتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين ، ممن عاشوا فى السهول الأندلسية الممرعة ، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء ، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها . فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية ، فيها الخصب السعيد ، وفيها الجدب الشقى ، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار ، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء .

ولكن الشىء الذى لاشك فيه ، هو أن أخصب بقاع شبه الجزيرة وأحسنها مناخاً ، تلك الأقاليم التى فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم بغيرها إلا قليلا أو لضرورة . وتلك الأقاليم هى : السهول الجنوبية والشرقية والغربية ، التى تغنى بالحصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة ، وتسعد بالمناخ المعتدل . أما الأقاليم التى تقع ضمن الهضبة الكبرى ، فهى أقل الأقاليم حظاً من كرم الطبيعة وحسن المناخ . ويكفى أن نعلم أن تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الحصوبة ، وكثير منها غير صالح للزراعة ، والصالح فيها يروى غالباً بمياه الأمطار . التى تجود حيناً وتبخل أحايين . ثم إن المناخ فى تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال ، فهو فى الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج ، وهو فى الصيف شديد الحرارة متوهج الهاجرة .

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر ؛ وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها ، ولاتصالها من الشمال بأوربا ومن الجنوب بإفريقيا ، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع فى تضاريسها ، من جبال إلى سهول ، ومن هضاب تعفرها الرمال إلى شواطئ تغسلها البحار . وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية ، موطناً لشتى المناخات ومختلف الأجواء ؛ فبينما تغلب طبيعة أوربا فى الشمال ، تغلب طبيعة إفريقيا فى الجنوب ، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوربا فى جهة ، يشابه

مجاوريه من سكان شمال إفريقيا فى جهة أخرى . وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا أنه لا فاصل بين الشماليين ومجاوريهم الفرنسيين إلا جبال البرانس ، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاوريهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق .

وكما تختلف الأجواء والطبائع فى بلاد الأندلس ، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال : إن أكثر الحاصلات التى تعرف فى مناطق العالم المختلفة تجنى فى الأندلس ، لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزورعات تقريباً . على أن أكثر حاصلات البلاد ، هى تلك التى تجود فى حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول ، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم ؛ وهناك أيضاً يكثر الزيتون ، الذى عليه وعلى الموالح والأرز والكروم يعتمد الدخل القومى أعظم اعتماد .

وبلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمزاعى والمرافىء البحرية ، وهى بهذا كله تمثل — كما يقول كثيرون — قطاعاً كاملا من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة .

٣ — إسبانيا قبل المسلمين :

يُعتبر الإيبريون Los Iberos من أقدم من عُرف من سكان إسبانيا ، وقد اختلط بهم قديماً من يسمون بالسلتيين Los Celtas ، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسلتى الإيبرى Celtiberos ؛ وذاك الشعب هو أصل الشعب الإسبانى [1] الذى

---

(١) يضيف بعض الباحثين إلى هؤلاء عنصراً ثالثاً يسمى Los Tartisios وكانت لهؤلاء حضارة قديمة فى جنوب شبه الجزيرة . وكان مركز تلك الحضارة مدينة Tartissos قرب Jerez .

ويقال إن الإيبريين إفريقيون عبروا البحر إلى شبه الجزيرة . وأن السلتيين أوربيون عبروا جبال البرانس إلى شبه الجزيرة . وأما الترتسيوس فيقال إنهم أفريقيون ويقال إنهم أسيويون .

راجع : Antonio Ballestros : Sinteses de Historia de Espana, pp. 10 ff.

وانظر أيضاً : Aguado Bleye, pp. 153 ff. .

أسهمت فى تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ .

فقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبرية، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها ، وأغرتهم خيراتها بالإقامة فى بعض أقاليمها ، وخاصة فى الجنوب حيث أسسوا مدناً لايزال بعضها قائماً إلى اليوم ، مثل مدينة قادس Cadiz ، وكان ذلك فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد (١).

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة ، حول القرن السابع قبل الميلاد ، وأقاموا كذلك فى بعض جهاتها ، وخاصة الجهات الشرقية ؛ وأنشأوا أيضاً من المدن ما بقى بعضه حتى اليوم ، كمدينة برشلونه Barcelona(٢) .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد ، نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبريا ، وأسسوا بها مدناً جديدة ، مثل مدينة قرطاجنة Cartagena التى سموها باسم دولتهم فى شمال إفريقيا .

ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثانى قبل الميلاد(٣) حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها . ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الإيبرية ولاية رومانية . وقد صبغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصبغته التى ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامى برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون . وأهم آثار الحكم الرومانى التى ظلت حتى الفتح الإسلامى : اللغة الرومانية والدين المسيحى .

---

(١) Aguado Bleye, p. 154.

(٢) المراد بالإغريق إغريق آسيا الصغرى المسمون Focenses نسبة إلى Focea راجع المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها . وراجع أيضاً :

Antonio Ballestros : Sinteses de Historia de Espana, pp. 15 — 16.

(٣) سنة ١٣٤ ق . م .

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى[١] ، استقر « الوندلس » فى جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية ، وقد ظل هؤلاء Los Vandalos حيناً فى جنوب شبه الجزيرة ، ثم أجلاهم عنها القوط[٢] . وهؤلاء كسابقيهم ، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التى كانت تغير على ممتلكات الرومان فى ذلك الحين. وقد سيطر القوط Los visigodos على شبه الجزيرة تقريباً ، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة Toledo ، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامى سنة ٧١١ م .

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التى سبقتهم إلى إسبانيا منذ العهد الرومانى . كذلك كانت اللغة السائدة فى العهد القوطى هى اللغة الرومانية التى سبقت القوط إلى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان .

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة فى إسبانيا ، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم ، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعاً ؛ ذلك أنهم أخلدوا إلى الملذات وتركوا الشعب نهباً للآلام ، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة ، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء . وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين ، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء .

وقد ضاعف الحالة سوءاً ، كثرة المنازعات التى كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش ، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يُلقى على نار الثورة ، فتشب حيناً بعد حين ، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة ، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى ، تهز العرش القوطى هزاً عنيفاً ، بل كانت ترقصه على حافة بركان .

---

(١) سنة ٤٠٦ م .

(٢) يقال إن الوندلس رحلوا إلى أفريقيا سنة ٤٢٩ م .

راجع : Aguado Bleye, p. 339. .

فهناك الفشل السياسى والضعف الحربى والتفكك الاجتماعى والظلم الطبقى ، وقد تجمعت تلك العوامل فى أواخر العهد القوطى كأنها قطع الليل المظلم ، الذى تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد[١] .

٤ — المسلمون فى إسبانيا :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، واستقرت بتلك العدوة التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق . وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين ، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضى الله عنه ، إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير ، صاحب فضل كبير فى تثبيت قدم الإسلام فى شمال إفريقيا ، ونشر رايته حتى المحيط الأطلسى .

ولاشك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع فى شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق . ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين فى تلك البلاد ؛ لأن مصيره فيها كان محفوفاً بأخطار ، أقلها ذلك المجهول الذى لا يلتمع فى أفقه نجم .

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن ، وأصبح تردده فى فتح تلك البلاد ، تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين . كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبتة ، وعرض عليه تسليم سبتة أولا ثم المساعدة فى فتح إسبانيا ثانياً . وكانت سبتة — على الأرجح — ولاية إفريقية تابعة للقوط يحكمها من قبلهم حاكم[٢] ، وكانت إلى ذلك

---

(١) انظر : Dozy : Historia de los musulmanes de Espana, pp. 318 ff.

(٢) يرى بعض الباحثين أن سبتة كانت مستقلة ، ويرى البعض أن حاكمها كان إفريقياً من قبيلة غمارة . انظر : A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 9.

حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التى لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت ثغراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، يمكن أن يستخدم فى العبور إلى جنوب إسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخى على موسى ؛ فسؤال للمؤرخين فى الإجابة عنه أقوال عديدة [١] ترجع فى جملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ ، المسمى رُذريق Rodrigo . ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة [٢] عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت فى جنوب شبه الجزيرة ، بمكان لايزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم ، حيث يسمى جزيرة طريف Terila . ثم عادت تلك السرية إلى شمال إفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته فى فتح تلك البلاد . وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٩١ هـ — ٧١٠ م .

وفى السنة التالية (٩٢ هـ — ٧١١ م) أرسل موسى جيشاً كبيراً[٣] بقيادة طارق ابن زياد لفتح هذه البلاد . وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذى سمى باسمه فيما بعد ، ونزل من جنوب شبه الجزيرة فى هذا المكان الذى سمى كذلك بجبل طارق . وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبتة ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم .

وقد هزم طارق كل الحاميات التى تعرضت له بعد نزوله بالشاطئ الإسبانى . ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذى كان فى شمال شبه الجزيرة يخضع بعض

---

(١) من تلك الأقوال : أن ابنة يوليان كانت تربى كسائر بنات الأمراء فى قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها . ومن الأقوال أيضاً : أن يوليان كان موالياً للأسرة المالكة السابقة التى انتزع لوذريق الملك منها وهى أسرة غيطشة Vitiza

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس . وقد عبرت على أربع سفن . انظر : أخبار مجموعة ص ٥ ، ٦ .

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية . ثم زيد الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط انظر : أخبار مجموعة ص ٦ ، ٧ .

الثائرين ، فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة ، واستعد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم . ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة ، بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفى سهول شَريش قرب مدينة قادس ، وعند وادى لَكَّة[1] Guadalete التقى الجيشان فى معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط ، برغم تفوقه فى العُدد والعَدد على جيش المسلمين [2] . وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم ، ثم اتجه بأكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة ، فدخلها وأسس دولة المسلمين فى الأندلس على أنقاض دولة القوط .

وفى العام التالى (٩٣ هـ — ٧١٢ م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد، ونزل فى مكان آخر هو الذى يسمى الآن بالجزيرة الخضراء Algeciras . ثم سار فى طريق آخر غير الذى سلكه طارق ، وأخضع فى طريقه عدداً من المدن والأقاليم التى لم تكن

---

(١) يسميه المؤرخ الأندلسى ابن القوطية . بوادى بكة ، وعلى أية حال فهو نهر يصب فى خليج قادس . ويقول دوزى : إنه النهر الذى يسمى الآن Rio salado . على أن ليفى بروفنسال يرى أن المعركة دارت على ضفة البحيرة المسماة Janda التى تتصل بنهر Barbate انظر :

Levi Provençal : La Espana musulmana, p. 13.

وانظر أيضاً : Sanchez Albornoz : La Espana musulmana, p. 36, vol. I.

وانظر كذلك : Dozi : Historia, p. 24, vol. I. .

وانظر : من المصادر العربية : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ . وأخبار مجموعة ص ٨ . وابن عذارى ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١١ .

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠٠ أما لذريق فقيل إنه قتل فى المعركة ، وقيل فر ببعض قواته فقتل فى معركة أخرى . انظر أخبار مجموعة ص ٩ .

وانظر كذلك : Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 10. .

قد خضعت بعد ، مثل شذونة [١] وإشبيلية وماردة [٢] ، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة [٣]

ويقال : إن موسى عنف مولاه طارق بن زياد ولامه كثيراً على توغله فى البلاد توغلا كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين ، ويقال أيضاً : إنه لم يعنفه فحسب ، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله . وللمؤرخين فى تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات ، بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه . على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة بين القائدين العظيمين سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيراً من أقاليم حوض نهر إبرُه مثل إقليم سَرَقُسْطَة . ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية ، مثل سوريا [٤] وليون وبعض حصون أستورياس وجليقية [٥].

وفى غمرة الانتصار [٦] استُدعى موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن يكون فى صحبته طارق . فأوقف موسى الزحف ، وعاد إلى الجنوب ، وأصلح من شئون الأندلس ما استطاع ، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد ، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق إلى دمشق سنة ٩٥ هـ — ٧١٤ م .

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية ، وكانت لهم فيها دولة بل دول .

---

(١) Sidonia

(٢) Merida

(٣) كان الجيش الذى عبر به موسى يتألف فى أغلبيته من العرب . وكان عدده ١٨,٠٠٠ من الجنود . انظر : Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff.

وانظر أيضاً : Palencia : Historia, p. 19.

وانظر كذلك أخبار مجموعة ص ١٥ .

(٤) اسم إقليم فى إسبانيا ، وهم يسمون سوريا التى هى من الأمة العربية (سيريا) Siria

(٥) Galicia

(٦) لم يتأكد ليفى بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا. ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى بربونة أو إلى ليون فى فرنسا .

انظر : Levi, p. 18 ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٥٠ .

ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل . وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين . وليس هنا محل سرد شئ من ذلك أو تفصيل القول فيه . وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذى قارب ثمانية قرون ، يقسم عادة إلى عصور هى :

أولا : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذى يبدأ بالفتح الإسلامى سنة ٩٣ هـ — ٧١٢ م وينتهى بقيام دولة بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ — ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بوساطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموى ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس ، تلك الدولة التى تبلغ ذروة مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر الذى يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهى هذا العصر بانتهاء ملك بنى أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهورى سنة ٤٢٢ هـ — ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُلِيك . وينتهى هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ — ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهى بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين فى حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهى

بسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التى كانت فى أيدى المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية فى جزء جنوبى صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ — ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطى . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهى بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م .

على أن بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين ، فيجعل فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين عصراً ؛ ويجعل كذلك فترة ما بين عصر الموحدين والعصر الغرناطى عصراً آخر ، ويسمى الأول عصر الطوائف الثانى ، ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث (١) . كما أن البعض يضم الفترات الأولى من الدولة الأموية ؛ وهى الفترات التى سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر ، إلى فترة مابعد الفتح الإسلامى ، وهى فترة الولاة ، ويسمى كل ذلك ، عصر الإمارة ويعنى بذلك كل ما قبل الخلافة ، أو عصر الإمارتين ، ويعنى بذلك إمارة غير الأمويين ثم إمارة الأمويين .

ومهما يكن من أمر فليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسمائها شئ ، وإنما الذى يعنينا هو تلك المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التى تتصل بالأدب . لهذا لن نرتبط بهذا التقسيم تمام الارتباط ، لأن اختلاف المؤثرات الأدبية قد يكون أكثر خلال عصر سياسى واحد ، على حين لا يوجد كبير اختلاف بين عصرين سياسيين آخرين . ومن هنا سنهتدى فقط بهذه التقسيمات السياسية فى درسنا للعصور الأدبية ، على أن نقسم العصر الواحد إلى فترات إن كان ذلك فى صالح الدرس الأدبى ، وعلى أن نضم عصرين إن كان ذلك فى صالح الدرس الأدبى أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى غير هذا المكان .

---

(١) وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف هو الذى جاء على أعقاب سقوط الحكم الأموى فى الأندلس . ومن ساروا على هذا التقسيم : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. 2, p. 327.

٥ – المجتمع الأندلسى :

(أ) العناصر البشرية فى الأندلس :

كان المجتمع الأندلسى مكوناً من عناصر شتى ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر ، ثم فيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، والمماليك المجلوبون من بلاد غربية عديدة .

أما أهل البلاد الأصليون ، فهم المسمون بعجم الأندلس ، وكانوا فى أكثريتهم الغالبة من الإسبان .

وأما الوافدون ، فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، وقد سمى أوائلهم – وهم من أتوا مع موسى بن نصير – باسم البلديين ، كما سمى من جاءوا بعدهم باسم الشاميين[١] .

كذلك كان من الوافدين ، البربر الآتون من شمال إفريقيا ، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد[٢] .

وأما الموالى ، فقد أتوا فى ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس ، إذ كانوا مرتبطين بهم تابعين لهم ، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم ، وعدوا فعلا من القبائل التى تربطهم بها روابط الولاء .

وأما المماليك ، فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية ، وخاصة من المناطق السلافية ، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلافيين صغاراً ثم يبيعونهم

---

(١) انظر فى هذه التسميات المصادر التاريخية الأندلسية المتقدمة ، مثل تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ومثل أخبار مجموعة .

(٢) انظر أخبار مجموعة ص ٦ .

فى أسواق إسبانيا . وقد عرف هذا النوع من الرقيق فى الأندلس باسم الصقالبة ، ثم غلب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافيًّا [١].

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرون فى المجتمع الأندلسى كعنصر منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسى كان مجتمعاً مهلهلا بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض فى أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسى المميز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة ، التى تصبغ جميع العناصر بصبغتها الواضحة ، تلك الصبغة التى لا يكاد يفترق فيها بربرى الأصل عن عربى الدم ، بل لا يكاد يميز معها إسبانى الجدود من عربى الآباء .

على أن أهم ما جعل الوحدة البشرية فى المجتمع الأندلسى ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشرى الذى يمثل أكثر سكان الأندلس ، والذى يعتبر أبرز عناصر المجتمع ، هو العنصر العربى الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسبانى ، والمؤلف من هذا الامتزاج مَن هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين.

فلقد وفد العرب على إسبانيا فى موجات هائلة ، وانتشروا فى أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلا ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ، العدنانية منها والقحطانية [٢] .

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا فى شكل جنود لا فى شكل أسر ،

---

(١) انظر : الصقالبة فى إسبانيا للدكتور مختار العبادى .

(٢) انظر تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٠ ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٣٦ وما بعدها ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم فى كثير من فصوله .

أى أنهم لم يأتوا فى أغلب الأحيان بنسائهم وزروجاتهم ، حتى يمكنهم الانعزال بشرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بحالتهم التى جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسرى بسكان شبه الجزيرة ، حتى يكونوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التى ستر بطهم بالوطن الجديد وتبقى نوعهم به .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون فى موجات ، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة ، أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسى وأهم مكوناته البشرية .

فمثلا كان جيش موسى بن نصير مؤلفاً — فيما تقول بعض الروايات — من ثمانية عشر ألفاً من العرب (١) وكان جنود الشام الوافدون مع بَلْج بن بشر فى عهد الولاة ، عشرة آلاف ، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب ، وألفان من الموالى (٢) . وكان جنود أبى الخطار الكلبى الوافدون فى عهد الولاة أيضاً من العرب ، ولابد أن يكون عددهم كبيراً حتى يصلحوا للمهمة التى قدموا من أجلها ، وهى فض النزاع بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام فى الأندلس (٣) . كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية ، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً (٤) ، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببنى أمية الوافدين عليهم ، وبكل اللائذين بهم من عرب المشرق عموماً .

---

(١) انظر Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff. وأخبار مجموعة ١٥ .

(٢) يسمى جنود بلج الطالعة الأولى .

(٣) يسمى جنود أبى الخطار بالطالعة الثانية ، وتسميتهم طالعة كما سمى جنود بلج تؤكد ما نتصوره من كثرتهم ، انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ ، ١٩ .

(٤) انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٧٣ .

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسى كان متعدد العناصر والأصول ، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع فى جملته ، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية ، وهو العنصر الذى تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذى يؤلف الأندلسيين الجديرين بهذه التسمية .

(ب) أصل الأندلسيين :

على أن الباحثين يختلفون فى أصل الأندلسيين ، ويتعارضون أشد التعارض فى اختيار الجنس البشرى الذى يندرجون تحته . فبعضهم — والشرقيون منهم بصفة خاصة — يرون أن هؤلاء الأندلسيين عرب ، قد رحلوا من مواطن العرب فى المشرق ، وعاشوا فى الأندلس محافظين على عروبتهم ، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم [١] . والبعض الآخر — والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة — يرون أن الأندلسيين ليسوا إلا إسباناً مسلمين ، فهم ليسوا عرباً وليسوا شرقيين ، وإنما هم إسبان وغربيون ، دينهم الإسلام ولغتهم العربية [٢] .

والسبب فى تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب فى تمسك الباحثين الغربيين بإسبانية هؤلاء الأندلسيين ، فكلا الفريقين يعتز بهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته ، ويضيف علمهم إلى علمه ، ويعد أدبهم من تراث أدبه . وربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهتى النظر [٣] ، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عرباً منهم ، تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم ، وكل الذى كانوا يخصون به الأندلسيين أن يعدوهم أحياناً أهل المغرب ،

---

(١) انظر مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 12 ff.

(٣) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦ وابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٣٥ .

على اعتبار أن المغرب الإسلامى يشمل شمال إفريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذى يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر.

وفكرة الشرقيين قديماً وحديثاً فى اعتبار الأندلسيين عرباً ، تقوم على هذا التقليد العربى الذى ينسب الولد إلى أبيه، فمادام آباء الأندلسيين كانوا عرباً فى الأصل، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك ، ينتمون كآبائهم إلى عدنان وقحطان .

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان ، فى اعتبار الأندلسيين إسباناً مسلمين ، فقد نشأت أخيراً وبدأ الاتجاه إليها فى القرن الماضى تقريباً حينما انحسرت موجة الكراهية التى كانت تغمر قلوب الأوربيين – وخاصة الإسبان – ضد مسلمى الأندلس ؛ فقد كانوا قديماً يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين ، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم .

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين ، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوربا كلها لا على إسبانيا وحدها ، وبينوا ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوربية جميعاً ؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التى لقيها هؤلاء المسلمون على أيدى المسيحيين ، وأخذت الأبحاث تتابع فى بيان ما لمسلمى إسبانيا من التأثير فى الفلسفات والآداب والفنون الأوربية على وجه العموم[1] .

---

(١) من أقدم الأبحاث التى نبهت إلى فضل الأندلسيين على الحضارة الأوربية بحث القس خوان أندريس Juan Andres ، كتبه فى القرن الثامن عشر عن أثر الثقافة الأندلسية فى الثقافة الأوربية . وكان هذا القس يسوعياً ، طرد من إسبانيا وفصل من الجماعة .

ومن أعظم الأبحاث فى هذا الشأن ، أبحاث المستشرق الإسبانى Asin Palacios عن الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الأوربية . ثم بحثه الجليل عن تأثر دانتى بالإسلام فى الكوميديا الإلهية . وكذلك من أمتع الأبحاث فى تأثير الأندلسيين ، أبحاث المستشرق الإسبانى Julian Ribera عن تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوربى ، والموسيقى الأندلسية فى موسيقى الإسبان إلخ .

وأخيراً تبنّى مستشرقو الإسبان وعلى رأسهم العلامة « خوليان ريبرا » Julian Ribera فكرة الأصل الإسبانى لمسلمى الأندلس . ويعتبر « خوليان ريبرا» أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية ؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا — كما هو معروف — على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الإسبانيات الجانب الآخر فى تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى أمر الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإسبانيات حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية فى الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . وإذا كان الولد — فى الحقيقة — ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الإسبانى حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الإسبانى الذى يكاد يكون خالصاً .

ويُجرى الأستاذ« ريبرا » تجربة على الأسرة الأموية التى حكمت فى الأندلس فيقول ما خلاصته : إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربى ، لأنه كان من أم غير عربية ، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربى لأن أمه كانت أيضاً غير عربية . وهكذا تتناقص نسبة الدم العربى كلما مضينا من أمير إلى آخر ، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبى ؛ فالحكم ابن هشام ليس له من الدم العربى إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ، ليس له إلا جزءاً من ستة عشر جزءاً ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين جزءاً ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءاً ، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتى بعدهما محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفى دمائه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءاً . ثم يأتى بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب

بالناصر ، وليس له من الدم العربى إلا جزء من مائتين وستة وخمسين جزءاً . أما ابنه الحكم الثانى ، فليس له تبعاً لذلك إلا جزء من خمسمائة واثنى عشر جزءاً . وأخيراً يأتى هشام الثانى فلا يكون له من الدم العربى إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً [١].

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذى حمل الأستاذ « ريبرا » على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون ؛ فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسبانى ، ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التى أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربى فى الدم الإسبانى ؛ لأننا لا نتصور أولا أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربى فى الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة ، وإن كان قد تصادف ذلك فى الأسرة الأموية . فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربى وأم إسبانية ، وأن الزيجات الغالبة كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربى على الأقل . وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذى ضربه الأستاذ « ريبرا » أن كل زيجة من عربى وإسبانية تنتج رجالا فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإسبانيات خالصات ؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين . لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائماً من إسبانيات جديدات ؟ !

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبرا » دون المضى معها إلى آخر الشوط ، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج . بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد كانوا يتزوجون من إسبانيات . وأن هذه الزيجات ، أنتجت فعلا جيلا من الأندلسيين

---

(١) Ribera : Disertaciones, vol. I, pp. 14. ff.

تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجاً تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريباً . ثم إن الأمر ظل على هذا غالباً ، نظراً لكون هذا الجيل الأول من المولدين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربى ، ويظل الأمر على ذلك ما تتابعت الأجيال .

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية ، وفيه تبعاً لذلك كله موروثات من العرب والإسبان جميعاً .

بقى أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماء ، فهم عرب فى قوميتهم ، لأنهم عرب فى عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم . فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان فى الشكل أو فى الطبع ، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع . ومن هنا كان تراثهم تراثاً عربياً يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور . أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعاً لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات ، فشئ نحترمه فى الدرس الأدبى ونعنى به ونبرزه ما أمكن . وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيتهم كما يقول الأستاذ « ريبرا » ومن جاراه من المستشرقين . وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين ، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث .

(ج) الديانات فى الأندلس :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك ، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف فى العهد القوطى ، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية ، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام فى سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة ، فقد شاركهم

فى هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار ، أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين ، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التى تحت يده ، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية ، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولى الأمر أيضاً [١] .

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها فى شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين ، وصاروا يسمون بالمسالمة ، كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين . وإنما قلنا : الغالبية العظمى ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم فى هذا المجتمع الكبير ، بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين ، وكانت تلك أقلية كبيرة إن صح هذا التعبير . وقد ترك المسلمون لهؤلاء المسيحيين حريتهم فى البقاء على دينهم ، وفى مزاولة شعائرهم ، فتجاورت المساجد والكنائس فى سماحة ، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس فى محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون فى الأندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذى كانوا يعايشون المسلمين فى الأندلس ، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشىء الكثير ، فقلدوا المسلمين فى لغتهم وتعلموا ثقافتهم ، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم ، ولذلك سموا بالمستعربين Mozarabes

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية ، وجدت من المسلمين كثيراً من التسامح وحسن المعاملة ، بعد أن وجدت فى فتحهم لأسبانيا منقذاً من الجور ، الذى كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط [٢] .

---

(١) Levi : Espana musulmana, pp. 46 ff.

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .
وانظر : Palencia : Historia, pp. 124 ff.

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون فى ظلال الحكومة الأندلسية ، درجة تحمل على الإعجاب ؛ فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأمراء والخلفاء ، كما كانت لهم فى أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة ، التى ترشحهم لها كفاءتهم دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة . ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من المسيحيين ، « أرطباس » الذى كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس ، حتى كانوا يستشيرونه فى أمور البلاد ، والذى كان أيضاً موضع تكريم الأمير عبدالرحمن الداخل ، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القماسة ، فكان أول قومس بالأندلس [١] . ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك « حيزون » الذى كان قاضياً للنصارى بقرطبة فى أيام الحكم المستنصر ، والذى كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان فى بعض الأحيان [٢] .

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود ، « حسداى بن شبروط » الطبيب ، الذى كان من كبار رجال الخليفة الناصر ، كما كان من ذوى النفوذ الواضح لدى المستنصر [٣] . ومنهم كذلك « صمويل بن النَّغرِلّة » الأديب ، الذى كان وزيراً لباديس ملك غرناطة فى عهد الطوائف .

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة ، يمكن أن يقال : إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الإفريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس .

(د) اللغات فى الأندلس :

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة فى شبه الجزيرة ، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد .

---

(١) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٨٢ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٥٠ .

وقد كان لهؤلاء العرب الوافدين على الأندلس فى شكل موجات كبيرة ، أثر كبير فى نشر اللغة العربية فى شبه الجزيرة . ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية ، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق ، ولسان الممتازين ذوى السلطان . ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية فى عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم ، من تلك الشكوى التى أطلقها أحد قساوستهم ، واسمه « ألفرو » القرطبى [1] Alvaro cordobes حيث يقول : « إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها . وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربيًّا جميلا صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة !! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جميع كتبها ، ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب . فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم . يالالألم !! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلاتكاد تجد فى الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة فى لغة العرب ، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها فى أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًّا وجمالا » [2]

---

(١) كان فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان من الذين أسهموا فى إثارة النصارى وإشعال الفتنة المسماة ، بحركة الاستشهاد فى منتصف القرن التاسع الميلادى .

(٢) انظر : Palencia : Historia de la Litteratura arabego-espana, p. 295.

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى (وهو ترجمة المصدر السابق إلى العربية ، قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها فى شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضاً . وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد ، كما صار الإسلام دينها الرسمى كذلك .

وقد صارت فصحى الأندلس بمرور الزمن وبحكم البيئة الجديدة ، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة ، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحى الأقاليم العربية الأخرى .

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية ، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ ، فمما يتصل بالناحية الصوتية ، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف [١] ، وغلبة الإمالة عليهم [٢] . ومما يتعلق باستعمال الألفاظ ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات ، واقتراضهم لأخرى ، ثم تخصيصهم لأسماء هى فى الأصل لمسميات عامه ، وتعميمهم لأخرى هى فى حقيقتها لمدلولات خاصة . وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التى تميز عربية الأندلس بعض التمييز . فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة ، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة وري الأرض ، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، ومنها ما يتصل بالرى وأدوات الزينة ؛ وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريباً ، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذى عرفت عليه عندهم .

فمما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، إطلاقهم كلمة « الوزير » على كل من يجالس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته ، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمى المعروف. وإطلاقهم كلمة « الحاجب » أو « ذى الوزارتين » على من يكون فى هذا المنصب الوزارى

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) انظر : الإحاطة لابن الخطيب جـ ١ ص ٣٥ .

الرسمى خاصة [١] . ومما يتصل بالإدارة وشئون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة « خطة » على ما يعرف بالإدارة ؛ فهم يقولون : « خطة الشرطة » و « خطة القضاء » و « خطة السوق » و « خطة الاحتساب » بمعنى الإدارات المسئولة عن تلك الشئون [٢] . ومما يتصل بذلك أيضاً إطلاقهم كلمة « المسدد » على حاكم البلدة الصغيرة [٣] ، وكلمة « الدراب » على حارس الدرب [٤] .

ومما يتعلق بالزراعة والرى ، إطلاقهم كلمة «المحشر» على الضيعة . وقد أخذوا الكلمة من « الحشر » وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدوابهم ويبيتون مكانهم [٥] . ومما يتعلق بهذا أيضاً ، إطلاقهم كلمة « الوادى » على النهر خاصة ، والكلمة فى الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال [٦] . ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة « باكور » بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار [٧] .

ومما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، إطلاقهم كلمة « البلاط » على البيت المحسن [٨] وكلمة « الأسطوان » على الدهليز [٩] ، وكلمة « الثُّرية » على مجموعة المصابيح [١٠] .

ومما يتصل بالزى وأدوات الزينة ، إطلاقهم كلمة « الغفارة » على البرنس أو نوع

---

(١) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٣) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٤) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٥) انظر : ألفاظ مغربية ، للدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٢٧ ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٢٥.
(٦) انظر ألفاظ مغربية ص ٦٦ .
(٧) انظر ألفاظ مغربية ص ١٩ .
(٨) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٦ .
(٩) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٦ .
(١٠) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٥ .

من الطيلسانات [١] ، وتخصيصهم كلمة « الأرجوان » بالصوف الأحمر [٢] ، وكلمة « الخمار » بشقاق الحرير التى تغطى بها المرأة رأسها [٣] . ومعروف أن الأرجوان فى حقيقته للأحمر من الصوف وغيره ، وأن الخمار لكل ما خمرت به المرأة رأسها من الثياب

وهناك كثير جداً غير هذه الألفاظ مما استعمله الأندلسيون لمسميات حضارية ، كإطلاقهم « الجَفَّافة » على ما يجفف به من قطع قماش قطنى أو صوفى [٤] ، وكإطلاقهم « البَبَطير » على ما يوضع حول عنق الصبى من قطعة قماش تصون ثيابه من اللعاب [٥] وكإطلاقهم « الدادة » على المربية [٦] .

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها . وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التميز [٧] .

وكما كان الإسلام لا يعيش وحده فى قلب شبه الجزيرة الأندلسية ، كانت اللغة العربية كذلك لا تحيا وحدها على لسان تلك البلاد . فلقد ثبت أن الفصحى وإن كانت اللغة العلمية والأدبية والرسمية ، قد عاشت إلى جانبها اللغة العامية ، كوسيلة للحديث العادى . وهذا أمر طبيعى تؤيده الظواهر اللغوية فى كل لغة وفى كل قطر تقريباً [٨] ، حتى لا نحتاج معه إلى أدلة خاصة تؤيد حياة هذه العامية الأندلسية

---

(١) انظر : ألفاظ مغربية ص ٤٦ .

(٢) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٥ .

(٣) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ .

(٤) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٨ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ . والكلمة لها ما يقابلها بالإسبانية مثل : Babadero مما يدل على أصلها اللاتينى المحلى .

(٦) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣١ .

(٧) فى الملحق الذى وضعه « دوزى » للمعاجم العربية كثير من هذه الألفاظ ، وكذلك البحث الذى نشره الدكتور عبد العزيز الأهوانى باسم . « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة » .

(٨) أنظر : الدكتور إبراهيم أنيس : اللهجات العربية ص ٢٤ وما بعدها .

إلى جانب الفصحى .ومع هذا هناك أدلة عديدة تؤكد أن الأندلسيين كانت لهم عامية عربية يستخدمونها فى حياتهم اليومية . ويتكلمون بها فى حديثهم البعيد عن العلم والأدب والرسميات . ومن تلك الأدلة ما يتصل بالقرون الأولى لحياة المسلمين فى الأندلس ، ومنها ما يتصل بالقرون الأخيرة لحياتهم هناك .

فقد ذكر ابن بسام فى حديثه عن أول أندلسى اخترع الموشحات ، أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة »[1] وليس يعنينا الآن تفصيل القول فى هذا المخترع ولا فى طريقة عمله للموشحات ، لأن ذلك سيفصل فى مكانه من هذا البحث [2] ، وإنما الذى يعنينا أن نشير إلى أن ذلك المخترع مُقَدَّم بن معافى القَبْرى كان — كما يقول ابن بسام — يعتمد على الالفاظ العامية كمركز لموشحاته ، ومقدم هذا قد عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فكأن الأندلسيين كانت لهم فى تلك السنين المتقدمة من حياتهم فى الأندلس عامية يعتمد عليها مثل هذا الفنان فيما يصوغ من موشحات .

كذلك يذكر ابن سعيد المغربى ، وهو من أدباء القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) « أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلَوْبِينى أبى على المشار إليه بعلم النحو . . .وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قواعد النحو استثقلوه واستبردوه »[3] .

وحديث ابن سعيد يفيد — كما هو واضح — أن الأندلسيين ، بل المثقفين

---

(١) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ .
(٢) انظر الفقرة الخاصة باختراع الموشحات فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .
(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

والعلماء منهم . كانوا يتكلمون عامية كثيرة الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، وأن تلك الظاهرة كانت موجودة بين الأندلسيين ، وليست فقط فى عهودهم الأولى بشبه الجزيرة ، حيث يمكن أن يقال إن العربية لم تكن قد استقرت بعد ، وإنما كانت موجودة أيضاً فى عهودهم المتأخرة ، حيث مضت قرون على دخول العربية إلى الأندلس ، وحيث انتشر تعليمها وتعددت معاهدها وكثر أساتذتها وشاعت مؤلفاتها .

وقد كانت هذه العامية الأندلسية ذات سمات محلية ما زالت تزداد بمرور الزمن ، حتى جعلت من تلك اللهجة شيئاً غريباً عسير الفهم على غير الأندلسيين وقد كان من تلك السمات[1] مايلى :

إدماج الفعل المساعد (كان) فى الفعل المضارع الذى يتلوه ، بحيث تحذف نون (كان) وتبقى الكاف فقط ، فيقال فى كان يقول « كيقول » .

إدماج (فى) الجارة ، فى الاسم الداخلة عليه ، والاكتفاء أحياناً بالفاء متصلة بهذا الاسم ، ونطقها بين الكسر والفتح .

استعمال ظروف خاصة هى ليست فى الأصل ظروفاً ، مثل استعمال كلمة (عاد) بمعنى (بعد) التى تأتى عادة مع الفعل المنفى ، فيقال « لم أفعل هذا عاد » بدلا من « لم أفعل هذا بعد » . ومثل استعمال الحرف (يا) ظرفاً للحال ، فيقال « يا أكلت » بدلا من « قد أكلت الآن » .

استعمال المثنى بالياء والنون دائماً وإبقاء الفتحة قبل الياء . واستعمال فعل الأمر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . واستعمال المضارع المسند للمتكلم وحده أو المتكلم ومعه

---

(١) استخرج هذه السمات وكثيراً غيرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى بحثه عن « الزجل فى الأندلس » . انظر مقدمة هذا المرجع ، صفحات : ز ، ح ، ط ، وانظر شرحه لما يرد فى النصوص من ألفاظ أندلسية عامية .

غيره بالنون فى الحالتين ، فيقال فى « أقوم » « نقوم » . ومن هذا التوسع فى الاستعمال أيضاً . عدم تخصيص (قد) بالفعل ، وإدخالها على الاسم .

تسكين أواخر الكلمات ، وتحريك هذه الأواخر بالفتح حين يراد التخلص من الساكنين .

قطع بعض الكلمات ، وكتابتها على حالها بعد القطع ، فيقال مثلا : (هُ) أى « هو » ويقال (لُ) أى « له » .

استعمال كثير من الألفاظ غير العربية . وأبرز ما كان من ذلك ، تلك الألفاظ المقترضة من اللاتينية المحلية ، مثل (ألْمَا) أى نفس . و(ألْبَا) أى فجر ، و(إشْتِ) أى هذا ، و (مَطْر) أى أم[1]

كذلك ثبت أن الأندلسيين لم يكونوا يعرفون العربية فصحى وعامية فقط ، وإنما كانوا يعرفون إلى جانبها لغة أجنبية أخرى ، هى إحدى اللهجات العامية المتفرعة من اللاتينية . وكانت هذه اللاتينية العامية لغة الإسبان عند الفتح العربى . لأننا نعرف أن اللاتينية كانت قد دخلت إسبانيا مع الرومان ، وطبيعى أن تتطور هذه اللاتينية على ألسنة الإسبان بعد انتقالها من موطنها الأصلى إلى شبه الجزيرة الإيبرية . ومن هنا كانت تلك اللهجة اللاتينية العامية التى يسميها العلماء « رومانثى » Romance، ثم كانت معرفة مسلمى الأندلس لها عن طريق هذا الامتزاج التام الذى حدث بين العرب الوافدين وكثير من الإسبان الأصليين بسبب كثرة الزيجات العربية الإسبانية ، وإنتاج أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثى » ؛ فطبيعى أن يعرف الأبناء لغة الأمهات كما يعرفون لغة الآباء[2] .

---

(١) هذه الألفاظ يقابلها فى الإسبانية : Alma Alba. Este. Madre .

(٢) صاحب نظرية معرفة الأندلسيين لهذه اللاتينية العامية هو المستشرق الإسبانى (خوليان ريبرا) Julian Ribera .

انظر كتابه : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 28 ff

كذلك كانت معرفة الأندلسيين بتلك اللغة غير العربية ، عن طريق دخول أسر إسبانية كثيرة فى الإسلام ، وهى تعرف لغتها الأصلية بطبيعة الحال ، إلى جانب اللغة العربية المتعلمة .

ثم لا يمكن أن يغفل هذا التعايش المتصل بين من ينتمون إلى أصول عربية وهم المسلمون ، ومن ينتمون إلى عناصر إسبانية وهم المسيحيون ، فهؤلاء لغتهم الأصلية « الرومانثى » ، ومن شأن المعايشة أن تتيح لكل من المتعايشين التعرف على لغة صاحبه .

وليس يُعتمد فقط على تلك الأدلة النظرية ، لإثبات معرفة الأندلسيين باللغة « الرومانثى Romance » بل هناك كثير من الأدلة التى تؤيد معرفة مسلمى الأندلس بتلك اللغة .

من تلك الأدلة ما ذكره المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم ، من أنه التقى فى موسم الحج ببعض الأندلسيين ، وأنه وجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ، ولغة أخرى أعجمية . فتلك العربية عسيرة الفهم ، هى العامية الأندلسية ذات الخصائص المعينة التى ربما سببت عسر فهمها على المقدسى . وتلك الأعجمية التى يشير إليها هذا الجغرافى ، ليست إلا تلك اللغة التى يسميها الباحثون « رومانثى »[1] .

ومن أدلة معرفة الأندلسيين لتلك اللغة الأجنبية أيضاً ، ما حكاه الخُشَنِىّ فى كتابه تاريخ قضاة قرطبة ، من أن قاضياً شكته العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى . فأمر الوزراء بسماع الشهادة فيه ، وكان بالمدينة شيخ أعجمى اللسان يسمى « ينير » Yenair وكان مقدماً عند القضاة ، مقبول الشهادة مشهوراً عند العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل إليه الوزراء وسألوه عن القاضى فقال بالعجمية : « ما أعرفه ، إلا أنى سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (وصغر باللفظ العجمى) . فلما رفع قوله إلى الأمير —

(١) انظر المرجع السابق .

رحمه الله – عجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح إلا الصدق »[١].

وواضح أن ما حكاه الخشنى يدل على أن من أهل الأندلس من كان كهذا الشيخ يتحدث بتلك اللغة العجمية أو « الرومانثى » كما تسمى . وواضح كذلك أن من كبار رجال الدولة من كان يفهم تلك اللغة أيضاً . كما فهم هؤلاء الوزراء حين سمعوا شهادة الشيخ ، بل كما فهم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين رفعت إليه عبارة الرجل ، فأعجب من دقتها ، واعتبر أن مصدر هذه الدقة هو الصدق .

ومن تلك الأدلة التى تساق لتأكيد معرفة الأندلسيين « بالرومانثى » ما روا ابن حزم فى كتابه جمهرة أنساب العرب ، وفى حديثه عن بعض فروعهم المسمين بنى بَلِىّ ، إذ يقول مميزاً لهم : « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم »[٢].

فتخصيص ابن حزم لبنى بلى بهذه الميزة اللغوية – ميزة عدم إحسان الكلام باللطينية – يفيد أن غير هؤلاء من الأندلسيين كان يحسن الكلام بها ، أو أن كثيرين غير هؤلاء كانوا يتحدثون بتلك اللغة التى سماها باللطينية . ، فأصبح عدم إحسان بنى بلى لها ميزة تستحق التنويه .

ثم لماذا نتصيد الأدلة على وجود عامية عربية وعامية لاتينية إلى جانب الفصحى فى الأندلس ؟ إن فى تراث الأندلسيين لوناً من الشعر ، فى كثير من نماذجه قد استخدمت ألفاظ عامية وأخرى رومانثية ، ذلك اللون هو ما يسمى بالشعر الشعبى الذى يتفرع إلى فرعين هما الموشحات والأزجال ، وسوف نفرد لهذا الشعر الشعبى حديثاً فى هذا الكتاب ،

---

(١) الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (تحقيق ليڤى بروفنسال) ص ١٤٥ .

وسوف تتضح فى جلاء معرفة الأندلسيين للعامية والرومانثى ، من خلال تلك النماذج التى سترد لهذا الشعر الشعبى [١].

على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائماً فى المحل الأول ؛ فكانت لغة العلم والأدب العالى ، كما كانت لغة الرسميات وكل ما هو جاد من أمور الدولة . أما العامية العربية فكانت تلى تلك الفصحى فى المنزلة ؛ وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها . وأما تلك العامية اللاتينية Romance ، فكانت فى المحل الأخير بطبيعة الحال . وكانت تحيا أساساً بين المستعربين ، باعتبارها لغتهم الأصلية ، أما غيرهم فكانوا يعرفونها من معايشتهم لهؤلاء أو من كون بعض أصولهم أو أقربائهم من الإسبان المتحدثين بتلك اللغة . ومن هنا كان حديث غير المستعربين بتلك اللغة، إنما يكون مثلا بين الرجل وامرأته التى هى إسبانية الأصل . أو بين المرأة الإسبانية وبنيها من رجل عربى ، أو بين مسلم ومستعرب لا يجيد العربية .

(هـ) الشخصية الأندلسية :

عُرف الأندلسيون بشخصية متميزة ، أسهم فى تكوينها إقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم [٢].

أما الإقليم ، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع . وقد سبب هذا اختلافاً فى طبيعة السكان وتقسما فى نزعاتهم وتبايناً فى ميولهم منذ أقدم العصور ؛

(١) انظر البحث الخاص بالموشحات فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) نقرر أن كثيراً من مظاهر الشخصية المذكورة فى هذا الحديث يغلب فى عصر دون عصر ولكنا نحاول رسم صورة تقريبية ، لأن لكل عصر فى الحقيقة طابعه المنعكس على الأفراد والمكون لشخصياتهم أو المغير لها بعض التغيير ، هذا بالإضافة إلى تغير الشخصية من واحد إلى آخر عن ما هو معروف . فهذه خطوط تقريبية وعامة إلى حد كبير .

فهم بين جلالقة[١] فى الشمال الغربى، وقطلانيين[٢] فى الشمال الشرقى ، وبشكنس[٣] فى الشمال ، وقشتاليين [٤] فى الوسط ، وجنوبيين [٥] فيما وراء الجبال السمراء .

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافى أثر فى انقسام الأندلسيين فى كثير من الأحايين ، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التى ينتمى إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب إلى بربر إلى إسبان .

وقد اتضح هذا الانقسام الذى سببته الطبيعة وغذاه الدم ، حتى ليلاحظ فى أغلب العصور الأندلسية المعروفة . فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك ، أو من حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة أو تلك ، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك . وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند ، إن لم يكن لإخضاع ثورة إقليم مسلم ، فلرد هجمة جيش مسيحى ، وإن لم يكن لسد بعض الثغور ، فلتأمين بعض الحدود ، وشواهد ذلك كثيرة فى كتب تاريخ الأندلس .

وقد سبب ذلك نوعاً من القلق فى المجتمع الأندلسى فكان فى كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات .

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف ، شخصية قد عانت نوعاً من القلق ، جعلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق . وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو ، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون .

---

(١) Gallegos
(٢) Catalanes
(٣) Vascos
(٤) Castillanos
(٥) Andaluces

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة ، إن سببت هذه الظاهرة السيئة فى حياة المجتمع وفى نفوس أفراده — وأعنى ظاهرة القلق — فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة ، كان لها أثر حميد فى نفوس الناس وطباعهم ، ثم فى فنونهم وآدابهم . ذلك أن الأندلسيين — كما ذكرنا — عاشوا أكثر ما عاشوا فى تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعى الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوبة فى خيالهم . وجمالا فى طباعهم ، ورقة فى أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحبين للجمال مشاهدة وتمثلا ، ثم محاكاة وتصويراً .

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية ، أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وموروثاتهم ، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان ومن شرقيين وغربيين ، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم ، فقد اختلطت فيهم دماء الإيبريين بدماء السلتيين ، ثم بدماء الفينقيين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط . فلما جاء العرب أخيراً كان الأندلسيون آخر الأمر ، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال . وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسى المولد ذاخصائص خِلقية وخُلقية وعقلية ونفسية مميزة جاءت كلهانتيجة لهذا التولد من تلك العناصر التى اختلطت منذ أقدم العصور .

وكان أهم هذه الخصائص الخِلقية : البياض المشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة فى الجنوب . ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذى يغلب عليه السواد . كل ذلك مع الوسامة فى الملامح والجمال فى التكوين[1] .

---

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة فى كتاب ، الإحاطة (ج ١ ص ٣٤ — ٣٥) ، وتلك الأوصاف تنطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيراً من سكان غرناطة قد جاءوها من باقى الأقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقى للمسلمين فى الأندلس . على أن صور الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم . وهى قريبة من الأوصاف التى ذكرناها .

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخُلقية ، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة ، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق ، وحب للترخص وبغض للتزمت . ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذى ساعدت عليه وفرة الكروم فى بلادهم [١] . كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص ، وهى فنون ربما كانت أنسب شىء إلى ظروفهم النفسية ، المطالبة بنوع من التنفيس .

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق — أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات — كلفهم الشديد بالنظافة [٢] وحبهم العظيم للتأنق ، وميلهم الواضح إلى الزينة [٣] ، ثم انفرادهم بتقاليد فى الزى تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى [٤] .

فهم مثلا كانوا — فى بعض عهودهم — يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمائم ونحوها مما كان يستعمل فى الأقاليم الإسلامية حينئذ . كما كان المعممون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمائم مغايرة تماماً لما كان عليه المشارقة . كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم ، لا يكاد يعرفها إخوانهم فى المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشارقة فى تقاليد الزى ، اتخاذهم البياض لوناً للحداد [٥] .

---

(١) بلغ إقبالهم على الشراب إلى حد أن الحكم المستنصر هم بقطع الكروم وإراقة الأشربة فى أقاليم الأندلس . انظر جذوة المقتبس للحميدى ص ١٤ .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ، جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ثم جـ ٢ ص ١١١ — ١١٢ .

(٤) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٠٣ .

(٥) ومما ورد مشيراً إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترنى لبست بياض شيبى ... لأنى قد حزنت على شبابى

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها : الذكاء الذى يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف . ومن هنا كانوا يبعدون كثيراً عن التفريع والتعمق والتفلسف فى أحوالهم العقدية والثقافية والفنية أيضاً .

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية ، ذلك الإحساس الذى يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشارقة . فالمشارقة كانوا فى مهد الثقافة الإسلامية ، وبلادهم منبع اللغة العربية ، وأقاليمها مصدر الاتجاهات الأدبية ، فكل شىء عقدى أو عقلى أو فنى يظهر أولا فى المشرق ويأخذ منه المشارقة ما يشاءون ، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس . وذلك كان بسبب قرب المشارقة من المصدر وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر . ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة ، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم ، وسبقهم برغم غربتهم . ومن هنا نراهم يتعصبون للدين تعصباً شكلياً . حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلا تعلقاً يوشك أن يكون جموداً ، هذا على حين يترخصون فى كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه .

كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً ، حيث يفتتنون بعلم النحو مثلا ويقتلونه درساً وتأليفاً ، ثم هم فى الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها .

كما نراهم يتعصبون للأدب التقليدى تعصباً صورياً . فيتلقفون مذاهبه ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته ، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها . كل هذا مع اختراعهم أشكالا جديدة من الأدب ، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التى يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق .

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشارقة كان يدفع إلى كل ما يلاحظ

فى حياتهم من تقليدية فى الدين والثقافة والأدب ، على حين يجذبهم شىء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد ، هذا الشىء هو بُعد بلادهم عن المشرق ، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب ، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس فى تقاليد الحياة الإسلامية العربية . ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين : الجانب التقليدى الصارم الذى جاء بدافع حب التفوق على المشارقة فيما سبق إليه المشارقة ، ثم الجانب التحررى المنطلق الذى جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط .

بقى أن نقول : إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك فى تكوين شخصية الأندلسيين ؛ فقد كانت الأندلس فى أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية التى أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها ، والتى لاتزال آثارها باقية إلى اليوم ، فى المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية فى المكان والنبات والآلة على السواء[1] .

ولم تكن الزراعة هى مصدر الرخاء الوحيد . بل كانت هناك الصناعة أيضاً ، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسى حينئذ ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية ، وساعدتهم موارد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى ، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لايزال أثرها حتى اليوم ، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات ، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار ؛ ومثل قونقة التى عرفت بمصنوعات العاج ، وشاطبة التى نبغت فى صناعة الورق ، وطليطلة ذات التفوق فى إنتاج السيوف وعدد الحرب .

---

(١) من أمثلة أدوات الزراعة الباقية إلى اليوم Acequia, Aljibe, Alcaduz ومعناها : الساقية ، الجب ، القادوس .

ومن أمثلة المزروعات التى لا تزال تحمل الاسم العربى Arroz, Azucar, Aceituna ومعناها : الرز ، السكر ، الزيتون .

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير فى المجتمع الأندلسى . ولاشك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة مما شجع على رواج التجارة الأندلسية ؛ فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت ، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة . وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوربا ، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجة فى تلك العهود . كذلك كانت جيان ومالقة تصدران التين والسكر والمرمر ، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعاً مختلفة من المعادن .

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس فى إفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس، ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند . وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقى بلاد العالم الإسلامى وعواصمه كمكة وبغداد ودمشق[١] .

وليس من شك فى أن الرخاء الاقتصادى يسهم فى تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذاالرخاء الذى غلب على حياتهم ، قادرين على مواجهة الحياة فى ابتسام وتفاؤل وتفتح إلى حد كبير . كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب . ومن هنا كان المجتمع الأندلسى مجتمعاً مثقفاً متأدباً . بل كان أكثر مجتمعات أوربا ثقافة وأدباً فى تلك العصور ، بل إن شئت فقل : كان هو المجتمع الأوربى الذى يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك .

---

(١) انظر : Palencia : Historia de la Espana musulmana, pp. 136 ff.